الدعـاة الجـدد والشبـاب: دراسـة ميدانيـة لـدى الشبـاب الجامعـي فـي المغـرب

محمد مصباح(*)

باحث في المركز المغربي للدراسات والأبحاث المعاصرة.

مقدمة

عرفت السنوات الأخيرة بروز العديد من الدعاة على الفضائيات العربية المشرقية، بحيث استفادوا من تطور التقنيات الحديثة (NTIC)، من إنترنت وقنوات فضائية وأشرطة فيديو (CD/DVD)، للتواصل، الأمر الذي مكّنهم من الوصول إلى شرائح واسعة من الشباب في وقت لم يستطع الخطاب الديني التقليدي الذي لم يستوعب هذه التحوّلات الوصول إليهم والتأثير فيهم. وتبرز التحولات أساساً من خلال التدفق الحاصل والاحتياجات الجديدة والطارئة لدى شرائح كبيرة من المجتمع، خصوصاً فئة الشباب، الأمر الذي تصدّى له هؤلاء الدعاة الجدد بذكاء وحكمة، واستوعبوا من خلال ذلك تعقيدات الحياة المعاصرة، وحاولوا تقديم إجابات على شكل برامج عملية ومشاريع مدنية، مستفيدين من تكويناتهم التقنية في مجالات التدبير والتسيير والهندسة والمقاولة، الأمر الذي مكّنهم من احتواء الحاجات المتجددة، وَوَجَّهوا ما يمكن تسميته بـ «الخطاب الاستيعابي والتوفيقي والواقعي» الذي يعطي إجابات عن مشاكل الشباب اليومية والعملية، واستثمروا الفرصة لملء الفراغ الذي تركه الدعاة التقليديون، في محاولة للتوفيق بين مقتضيات الشريعة الإسلامية ومتطلبات الواقع، من دون أن يحدث ذلك تغييراً جوهرياً في حياة الناس، وإنما كان محاولة من خلال هذا الخطاب التوفيقي لمساعدة الإنسان المسلم على التكيّف مع الواقع العنيد الذي يتطلب منه الالتزام بمجموعة من القيم والمعايير الموجودة في المجتمع.

وقد ساهم هذا الأمر في تكسير احتكار الخطاب الديني من قبل الفاعلين الدينيين المحليين، حيث دخلوا في منافسة مع مالكي الفضائيات الذين برعوا في إنتاج «نجوم الدعوة» المحترفين في الخطاب الديني الجديد الذي تماهت معه شريحة مهمة من الشباب العربي عموماً، والمغربي خصوصاً، الذين وجدوا حاجياتهم المفقودة عنده. أما الدعاة التقليديون

(*) البريد الإلكتروني: masbahmohammed@yahoo. fr.

فما زالوا يتحدثون عن خطاب التهويل (عذاب القبر، وأهوال القيامة... إلخ)، وخطاب فقه الطهارة (الحيض، النفاس، الاغتسال... إلخ)[١]، مبتعدين عن الإجابة عن الأسئلة المُحرِجَة التي يُوَجِّهها الناس والتحديات المعاصرة التي يُوَاجهها المسلم في حياته اليومية، والتي مسّت أنماط العيش والسلوك، مثل العلاقة بين الجنسين، وقضايا الهوية والانتماء، في عالم العولمة الذي أصبح بلا حدود ولا هوية.

ويواكب هذا التطور على مستوى تأثير الدعاة الجدد في الشباب المغربي ارتفاع معدلات الاستهلاك والعيش على النمط الغربي، والانفتاح الذي عرفه المغرب على العالم وتأثيرات العولمة... إلخ. هذه التحولات تدفعنا إلى الحديث عن «ظاهرة التدين الجديد»، التي قد تثير التساؤل عن مدى عمق التدين عند الشباب المغربي، مثل ظهور أشكال جديدة من الممارسات، لا يمكن معرفة إلى أي مرجعيّة تستند، ولا في أي خانة تصنّف، من قبيل «حجاب الموضة»[٢]، وملابس البحر الإسلامية، والمهرجانات الإسلامية، والأغنية الإسلامية[٣]، والأفلام الإسلامية، وحتّى المشروبات الغازية الإسلامية، مما دفع بعض الباحثين إلى الحديث عن «استراتيجيات الازدواجية» عند الشباب المغربي، كما تستنتج رحمة بورقية (Bourqia [et al.], 2000:81)، في كتابها **الشباب والقيم الدينية**. فالشباب حالياً يمرّ بأزمة يُعَبِّر عنها مؤشر الانقطاع بين ما يعيشه الشباب في المجتمع وطموحاته، فاليومي يتطلب من الشباب أن يتخذ قرارات في علاقاته مع الآخرين، وهو ما يتطلب منه نوعاً من التفاوض مع الواقع للخروج من المفارقة التي تفصل بين المثالي والواقع، وهو كذلك يعبّر عن قبول الشباب للحداثة من خلال الاتجاهات الإيجابية نحو الاختلاط في المدارس وعمل المرأة وتنظيم الأسرة، وفي الوقت نفسه الحفاظ على المرجعيّة الدينية والثقافية (Bourqia [et al.], 2000: 84)، وبالتالي خلصت الدراسة التي قامت بها أ. رحمة بورقية إلى أن الاتجاهات التي تحكم سلوكيات الشباب محكومة بالازدواجية والتفاوض.

١ ـ الدين كثابت، والتديّن كمتغير

الدين مصطلح ذو دلالات متعددة وغنية تجعل الباحث حائراً أي التعاريف هي الأصلح والأقدر على التفسير، وهذا التنوّع يصل إلى درجة من الغنى على مستوى التعريفات، بحيث يمكن تحديد مفهوم الدين من خلال عدة مستويات: اللغوي، والاصطلاحي، والسوسيولوجي... إلخ. وسنقف بإيجاز عند بعض التعاريف اللغوية والاصطلاحية، وذلك باعتبار أن مقاربتنا سوسيولوجية بالدرجة الأولى.

---

(١) من دون إصدار حكم قيمة حول هذا الخطاب.

(٢) حيث ترتدي الفتاة «الحجاب»، ولكنه هذه المرة ليس ذلك الحجاب الكلاسيكي الواسع والفضفاض الذي لا يكشف تفاصيل الجسم ولونه غامق، بل اتجاه إلى نوع جديد من «حجاب الموضة» الموقع من طرف دور الأزياء العالمية، وخلق «دور أزياء» خاصة لهذا الغرض، مع «عارضات أزياء» حسناوات يعرضن هذا الحجاب بالطريقة نفسها التي يتم فيها عرض ملابس البحر.

(٣) انظر مثلاً المغني البريطاني سامي يوسف، ومغني الراب الجزائري لطفي دوبل كانون (Lotfi Double Canon).

أ ـ الدين لغة

من الناحية اللغوية، يتضمّن لفظ «الدين» معاني متعددة يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أساسية: يدلّ **الأوّل** على معنى «مَلكَ، وسَاسَ، وقَهَر، وحاسب... إلخ»، إذ نجد في **القرآن الكريم**، في سورة يوسف مثلاً: ﴿**ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك**﴾[٤] بمعنى «في مُلْك المَلِك»، و﴿**مالك يوم الدين**﴾[٥]، أي يوم المحاسبة. ويدل المعنى **الثاني** على معنى الخضوع والطاعة: ﴿**أئنا لمدينون**﴾[٦]، أي «خاضعون، ومملوكون». أما المعنى **الثالث** فيدل على الطريقة والمنهج الذي يتبعه الإنسان. وتأكيداً لهذه المعاني اللغوية، فإن كلمة «الدين» عند العرب تتضمن علاقة بين طرفين يعظم أحدهما الآخر ويخضع له، فإذا وصف بها الطرف الأوّل، كانت خضوعاً وانقياداً، وإذا وصف بها الطرف الثاني كانت أمراً وسلطاناً، وحكماً وإلزاماً، وإذا أشير بها إلى طبيعة العلاقة بين الطرفين كانت هي الطريقة المنظّمة لتلك العلاقة، أو الشكل الذي يمثلها (بخوش، ٢٠٠٧).

ب ـ الدين اصطلاحاً

في الفكر الإسلامي[٧] نجد تعريفات اصطلاحية متعددة لمفهوم «الدين»، ومن أهم التعريفات نجد التعريف الذي وضعه التهانوي للدين الذي يعتبره بأنه «وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم إياه إلى الصلاح في الحال والفلاح في المآل، وهذا يشمل العقائد والأعمال، ويطلق على ملة كلّ نبي، وقد يخص بالإسلام كما في قوله تعالى: ﴿**إن الدين عند الله الإسلام**﴾[٨]، ويضاف إلى الله عزّ وجل لصدوره عنه، وإلى النبي لظهوره منه، وإلى الأمة لتدينهم به وانقيادهم له». ويمكن تلخيصه بأن الدين هو وضع إلهي يرشد إلى الحق في الاعتقادات، وإلى الخير في السلوك والمعاملات (بخوش، ٢٠٠٧).

ج ـ مفهوم التديّن

أما التديّن فالمقصود به، بحسب صلاح عبد المتعال، هو نمط سلوكي وأسلوب حياة، بغرض التمسك والالتزام بأفكار المعتقد الديني وتعاليمه تجاه الخالق والمجتمع؛ إذ يتميز بالإرادة لتعديل السلوك استجابة لمضمون العقيدة الدينية. وينطبق ذلك على معظم الأديان والمعتقدات منذ استجاب الإنسان عبر التاريخ لنداء الفطرة الدينية (عبد المتعال، ٢٠٠٦).

ومنه، وإذا شئنا أن نقول، فإن الدين هو النظرية، والتديّن هو التطبيق، أي الدين هو

---

(٤) **القرآن الكريم**، «سورة يوسف»، الآية ٧٦.

(٥) المصدر نفسه، «سورة الفاتحة»، الآية ٤.

(٦) المصدر نفسه، «سورة الصافات»، الآية ٥٣.

(٧) يقصد بالفكر الإسلامي مجموع النصوص والتأويلات التي تشكلت تاريخياً لفهم النصّ المقدس (القرآن الكريم، السنّة النبوية).

(٨) المصدر نفسه، «سورة آل عمران،» الآية ١٩.

مجموعة الأفكار والمعتقدات الموجّهة، والنموذج المعياري (المرجعيّة النهائية) الذي يستمد منه المؤمنون معنى الوجود، ويعطي تفسيرات عن الله والإنسان والطبيعة. وهو بهذا المعنى ثابت لا يتغيّر، بمعنى أن الإسلام من هذا الجانب لم يطرأ عليه أي تغيير منذ نزول الوحي إلى اليوم، بدليل حفظ الله له، وهذا المستوى يدخل في مجال اشتغال المتخصصين في الدراسات الشرعية.

أما التدين فهو إنزال هذه القيم والمعايير من مستواها المجرد الموجود بين دفتي النصوص المقدسة (القرآن الكريم والسنّة النبوية بالنسبة إلى المسلمين)، ومحاولة الالتزام بها والسير على نهجها، وعلم الاجتماع في دراسته للدين في علاقته بالواقع لا ينظر إليه انطلاقاً من الزاوية الفقهيّة، بل يدرسه من زاوية بنياته ومؤسساته، وأدواره التي يلعبها، والوظائف التي يؤديها، ودراسة معانيه بالنسبة إلى المؤمنين به، بالإضافة إلى رصد مدى مساهمته في التغيّر الاجتماعي أو تكريس الواقع كما هو وتبريره.

٢ ـ منهجية البحث وأدواته

سيحاول هذا البحث الإجابة عن أثر الدعاة الجدد في نمط التدين السائد عند الشباب المغربي، كما هو معيش في الواقع من خلال رصد مدى تعرّف الطلبة الذين شملهم البحث على أسماء الدعاة الجدد، والبرامج التي يشرفون عليها، والقنوات الفضائية التي تستضيفهم، ذلك أن التعرّف على الاسم يمثل مستوى أولياً في التأثير، ثمّ بعدها الوقوف على مدى وجود اتصالات بين الشباب المغربي وهؤلاء الدعاة، وهو مستوى أعمق في التأثير، ومدى تعرّفهم على الوزير المكلف بالشؤون الإسلامية، ورئيس المجلس العلمي، باعتبارهما يجسدان نموذجين من الدعاة المحليين، لمقارنة تأثير كلّ من المحلي والكوني في هذه الشريحة من المجتمع.

إلا أن هذا البحث حول تأثير الدعاة الجدد في الشباب المغربي تعترضه ثلاث صعوبات منهجية: تتجلى **الأولى** في صعوبة رصد مدى عمق تأثير الدعاة الجدد، وقياس تأثيرها في واقع الناس المعقد الذي يتداخل فيه عدد من الأبعاد النفسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية، بالإضافة إلى التنشئة الاجتماعية والمناهج الدراسية (بالنسبة إلى الشباب المتمدرس). والصعوبة **الثانية** تتجلى في قدرة الظاهرة الدينية على التخفي (Déguisement). أما الصعوبة **الثالثة** فتتجلى في غياب دراسات علمية أو قِلَّتِها ـ في حدود علمي ـ حول هذا الموضوع في المغرب. وهذه الصعوبات المنهجية لها أهمية في رسم حدود هذه الدراسة وعدم قدرتها على الإحاطة بكافة جوانب الظاهرة، إذ إننا لسنا بصدد دراسة ظاهرة بسيطة يمكن اختزالها في معادلة رياضية، وإنما ظاهرة معقّدة بتعقّد الإنسان وتركيبيته.

٣ ـ الأدوات المستعملة في البحث الميداني

سنستعمل في هذا البحث تقنية الاستمارة التي تندرج ضمن المناهج الكمية، باعتبارها التقنية الأكثر شيوعاً وتمتلك قدرة مهمة على قياس مدى تأثير الظاهرة. وقد قمنا بإعداد

استمارة من حوالى ٣٠ سؤالاً، تتناول مختلف جوانب البحث الذي شمل الجنسين كليهما، وفق عيّنة تمثيلية متساوية تقريباً مكوّنة من ١٥٠ طالباً تتراوح أعمارهم بين ١٨ و٣٠ سنة من طلبة جامعة الحسن الثاني ــ المحمّدية ــ في الكليات الثلاث الموجودة (كليات الآداب والعلوم والحقوق).

أولاً: تحوّلات تديّن الشباب في المجتمع المغربي

لفهم التحوّلات التي عرفتها ظاهرة التدين عند الشباب في المجتمع المغربي، لا بدّ من الوقوف على بعض المحطّات التاريخية التي تسمح بفهم الفاعلين الدينيين الأساسيين الذين ساهموا في تأطير الشباب دينياً. فبعد أن كان نمط التديّن التقليدي هو السائد في الممارسات والمعتقدات الدينية، وارتباطها بمؤسسة الزاوية باعتبارها المؤطر الأساسي للوعي الديني في تلك الفترة، خصوصاً في البوادي التي كان يتمركز فيها أغلب الساكنة المغربية، عرف المجتمع المغربي بعد الحصول على الاستقلال ثلاثة تحوّلات أساسية انطلقت منذ فترة السبعينيّات إلى اليوم في ما يخصّ علاقة الشباب مع ظاهرة التديّن، وتأثيرات الفاعلين الدينيين في حركية هذا التديّن.

تمثل **المحطة الأولى** الفترة الممتدة من بداية السبعينيات إلى نهاية العقد الثامن من القرن الماضي، بحيث ساهمت في تشكيلها عدة عوامل، من أبرزها ما يسمّى بـ «الصحوة الإسلامية»، إلى جانب الشبيبة الإسلامية باعتبارها أول حركة إسلامية مغربية، بقيادة عبد الكريم مطيع. وشجّع انتشار الدعوة الإسلامية، كذلك انتشار كتب وأشرطة الإخوان المسلمين، وخاصة كتب سيد قطب، وبالضبط **معالم في الطريق**، وأشرطة الشيخ «كشك»، بحيث عرفت هذه الكتب والأشرطة تجاوباً وتداولاً لدى الكثير من الشباب، خاصة التلاميذ والطلبة. كما إنَّ هزيمة ١٩٦٧، وفشل الاتجاه القومي بقيادة جمال عبد الناصر، وانتصار الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩ بقيادة آية الله الخميني، أدت بالعديد من النخب إلى الاقتناع بالمشروع الإسلامي كطريق للتغيير السياسي والاجتماعي، وهو ما أدى إلى تطور وتوسع الحركات الإسلامية في الوطن العربي بصفة عامة، وفي المغرب بشكل خاص، بحيث كانت لها تأثيرات مباشرة في حركية التديّن لدى الشباب المغربي الذي كان يعيش على إيقاع فترة انتقالية عرفت صراعاً حاداً بين التيار اليساري من جهة، والتيارات الإسلامية الناشئة من جهة أخرى، والنظام السياسي القائم من جهة ثالثة.

المحطة الثانية من صيرورة التديّن في المجتمع المغربي، انتقلت إلى الجامعات المغربية منذ بداية التسعينيّات مع دخول الطلبة الإسلاميين إلى العمل العلني في الجامعة، الذي تزامن مع بداية سقوط الأيديولوجيا الماركسية التي كانت مهيمنة آنذاك على الجامعة. فقد عرف دخول الإسلاميين إلى الجامعة في البداية بروز نقاشات وتفاعلات، سواء بين الإسلاميين واليساريين من جهة، أو بين الإسلاميين أنفسهم، وقد انتقل في بعض الأحيان من النقاش الفكري والحوار بالكلام إلى الاحتكاك العضلي واستعمال العنف من الطرفين

(الإسلاميين والماركسيين)، وتزامن ذلك مع تصاعد تأثير الحركات الإسلامية المشاركة في العمل السياسي، والمتمثلة في الحركة الشعبية الدستورية الديمقراطية، برئاسة د.عبد الكريم الخطيب، الذي دخل في تحالف مع مؤسسي حركة التوحيد والإصلاح[٩]، ليفرز في الأخير حزب العدالة والتنمية عام ١٩٩٨، هذا بالإضافة إلى جماعة العدل والإحسان التي ترفض المشاركة في المؤسسات السياسية، من منطلق فساد هذه المؤسسات وعدم وجود ضمانات من النظام القائم لإجراء إصلاحات سياسية جوهرية تضمن الديمقراطية والتعددية. وقد عرفت هذه المرحلة بصفة عامة صيرورة جديدة من التديّن داخل المجتمع بشكل عام، وتديّن الشباب بشكل خاص، بشكل تصاعدي يدعو إلى الاهتمام بهذه الظاهرة، والوقوف عليها ورصدها بالتحليل والتفسير.

انطلقت **المحطة الثالثة** منذ بداية الألفية الجديدة مع دخول فاعلين دينيين جدد، يمثلون تيارين أساسيين جديدين، بالإضافة إلى الفاعلين الدينيين الآخرين، الذين يتجسدون أساساً في الفاعلين الدينيين الرسمي والشعبي، والإسلام الحركي. هذان الفاعلان الجديدان يمثلان التيار السلفي والدعاة الجدد، إلا أننا سنقتصر في هذه الدراسة على تأثير الدعاة الجدد فقط من دون إغفال دور الفاعلين الآخرين.

فالملاحظة السوسيولوجية تبيّن تطور تديّن الشباب المغربي اليوم بشكل يختلف جملة عن تديّن أسلافه، فهذه الفئة أصبحت تتعامل مع الدين بوعي أكبر مبني على اختيار شخصي أكثر منه تقليداً للأجيال السابقة. كما إنَّ الدين أصبح يشكّل لعدد منهم مؤسسة أساسية في حياتهم، تنعكس على كافة مناحي الحياة، بحيث تشكّل بالنسبة إلى العديد منهم مشروعاً مجتمعياً.

أنماط التديّن عند الشباب

انطلاقاً من هذه الاعتبارات، يمكن القول إن الحديث عن تديّن الشباب المغربي بصيغة المفرد، يمثل تبسيطاً للظاهرة، فهي تعرف تنوعاً وغنى يدفعنا إلى الحديث عن أنماط التديّن عند الشباب بصيغة الجمع، بحيث في هذه الحالة نتحدث عن أشكال مختلفة ومتنوعة من التديّن تختلف بحسب الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية الثقافية والنفسية، وبصفة عامة يمكن استنتاج ستة أنماط للتديّن التي تؤطر فئة الشباب:

ـ **نمط التديّن الرسمي**: بالنسبة إلى المغرب، تتكون الهوية الدينية الرسمية من ثلاثة عناصر: المذهب المالكي، والعقيدة الأشعرية، والتصوف السنّي. ويهدف هذا النمط،

(٩) تمثل حركة التوحيد والإصلاح ثمرة اندماج كلّ من حركة الإصلاح والتجديد، ورابطة المستقبل الإسلامي، شهر آب/أغسطس ١٩٩٦، بعد حوار بين قيادات الحركتين دامت مدّة سنتين تم خلالهما التوافق على القضايا الكبرى، وتمثل حركة التوحيد والإصلاح الذراع الدعوي لحزب العدالة والتنمية - الحزب الإسلامي المشارك في المؤسسات السياسية.

بحسب عبد الباقي الهرماسي، إلى توظيف كلّ المؤسسات والهياكل والنظم القائمة لمصلحة المنظومة الدينية الرسمية، وعملية التوظيف هذه هي، أساساً، نوع من إضفاء الشرعية على النظام القائم (الهرماسي [وآخرون]، ٢٠٠٠: ٢١).

ـ **نمط التديّن التقليدي**: من الناحية المؤسسية تعتبر الزوايا والأضرحة والتعليم العتيق من أهم البنيات الدالة على استمرار التديّن التقليدي في المغرب، وهي ترتبط بعلاقة وظيفية بنمطي التديّن الرسمي والشعبي، فالأوّل يمنحها الوجود ويضفي عليها الشرعية من خلال الهبات الملكية لعدد من الزوايا وإعادة إحياء العديد منها، والثاني يزوّدها بالعنصر البشري والاعتقادي.

ـ **نمط التديّن الشعبي**: يقوم التديّن الشعبي على دعامة اعتقادية مفادها أن الأولياء أو الصلحاء يمتلكون القدرة على منح البركات، وقضاء حاجات السائلين، وذلك بفضل ما لديهم من بركات اكتسبوها بفعل تقرّبهم من الحضرة الإلهية، بشكل تكوّنت لديهم القدرة على التوسط بين الله والبشر.

ـ **نمط التديّن الطائفي**: يعتبر التديّن الطائفي نمطاً من الدين يحاول ضمان الاستقلالية تجاه العلاقات الاجتماعية السائدة. إنّه تديّن راديكالي تتبنّاه بعض الحركات الاجتماعية برفض المؤسسات الاجتماعية والسياسية، وبالنزوع إلى الحفاظ على أقصى حدّ من الحرية تجاه ما درج عليه المجتمع الرسمي من عادات وسلوكيات دينية، مستوحية طقوسه الخاصة من مذهبية دينية أخرى، أو من تأويل مختلف للديانة الرسمية. وتتجلى التيارات السلفية المعاصرة نموذجاً ممتازاً لهذا التديّن، بحيث إنّها تتمظهر في حركات دينية ذات طابع طائفي.

ـ **الإسلام المتعلق بحركة دينية سياسية**: تهتم هذه الحركات بإحداث تغييرات على كلّ المستويات، ليس فقط على المستوى السياسي فحسب، وإنما على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي والفكري. بالنسبة إلى المغرب يمثل حزب العدالة والتنمية/حركة التوحيد والإصلاح، وجماعة العدل والإحسان، أبرز النماذج لمثل هذا النمط من التديّن الذي يهدف إلى تغيير الأشكال والرموز القائمة، واستبدالها بأخرى من خلال إعادة قراءة التراث، وتأويله بشكل أكثر مرونة من نمط التديّن الرسمي والتقليدي والطائفي (أبو اللوز، ٢٠٠٨).

ـ **نمط التدين الحضري**: بدأ يظهر في الحواضر المغربية في السنوات الأخيرة بعد تعميم التمدرس لدى فئة الشباب، وانتشار الفضائيات والمواقع الإلكترونية الدينية، وهو تديّن فردي يتميز بنوع من الاستقلالية النسبية تجاه باقي المؤسسات الدينية الأخرى، سواء المدنية أو الرسمية، كما إنَّ هذا النمط ما زال في طور التشكّل، ولم تكتمل معالمه الفكرية بشكل كافٍ، مما يحتاج إلى مجهود نظري للتأصيل واكتساب شرعية في الواقع، إلا أن هذا لا يعني عدم تأثيره في أنماط التديّن لدى الشباب المغربي.

ثانياً: ظاهرة الدعاة الجدد وانعكاساتها على تديّن الشباب

١ ـ دور الفضائيات الدينية في انتشار ظاهرة الدعاة الجدد

تاريخياً، انتشرت هذه الظاهرة انطلاقاً من العقدين الماضيين، تزامناً مع التطور الحاصل على مستوى الاتصال السمعي البصري، خصوصاً الفضائيات والإنترنت، إلا أن هناك بعض الباحثين الذين يرجعون هذه الظاهرة إلى فترة الستينيّات والسبعينيّات (لطفي، ٢٠٠٥: ٢٤). ولكن هذه الظاهرة لم تأخذ هذا الحجم إلا في أواخر التسعينيات وبداية القرن الجديد، وخاصة بعد الطفرة التي وقعت على مستوى انتشار وسائل الإعلام، وسهولة الولوج إليها في الوطن العربي.

وتبرز التقارير والدراسات السوسيولوجية التي أنجزت في السنوات الأخيرة تأثير وسائل الإعلام الحديثة والفضائيات والمواقع الإلكترونية في تديّن الشباب المغربي، فالبحث الوطني حول القيم يشير إلى أن استقبال المعلومات الدينية يعرف تعدّدية مهمة، منها التلفاز الذي يأتي في المرتبة الأولى، وبعده المواقع الإلكترونية والكتب الدينية والأشرطة المدمجة بدرجة أقل. فنسبة استقبال المعلومات الدينية من خلال هذه الوسائط الحديثة بلغت ٥٠ بالمئة على القنوات المغربية، و٢٣ بالمئة على القنوات الدينية المشرقية، بالإضافة إلى ٥٩ بالمئة يستمدّون تديّنهم من المساجد(١٠).

وقد توصّل إلى النتائج نفسها تقريباً تقرير الإسلام اليومي (El Ayadi, Rachik et Tozy, 2007: 147)، فتأثير وسائل الإعلام في إيصال القيم الدينية إلى المجتمع حقيقية، لأن التلفاز يمثل مصدراً جديداً للمعلومة الدينية بالنسبة إلى غالبية المجتمع، وهي أكثر تأثيراً بالنسبة إلى فئة الشباب من الكبار: ٣٥ بالمئة للأفراد بين ١٨ و٢٤، في مقابل ١٧,٢ بالمئة لأكثر من ٦٠ سنة. وتمثل التلفزة المغربية مصدراً أساسياً للمعلومة الدينية (٤٧,٩ بالمئة)، وهي متقدمة بالنسبة إلى الكبار على حساب الفئات الشابة: ٦٤ بالمئة لأكثر من ٦٠ سنة، في مقابل ٤٣,١ بالمئة للفئة العمرية ١٨ ــ ٢٤.

وتعتبر القنوات الفضائية العامة أيضاً من المصادر المهمة للمعلومة الدينية بالنسبة إلى مختلف الفئات العمرية (٢٤ بالمئة)، وبالنسبة إلى الفئة العمرية الصغيرة فهي ٢٢,٥ بالمئة، في مقابل ٢٨ بالمئة للفئة العمرية الأكبر من ٦٠ سنة. وتختلف النسبة تماماً لما يتعلق الأمر بالقنوات الفضائية الشرقية المتخصّصة بالوعظ الديني، التي تمّ اختيارها من قبل أغلبية المبحوثين بوصفها مصدراً للمعلومة الدينية (٦١,٢ بالمئة). والشباب يلجأون إلى هذه القنوات أكثر من الشيوخ: ٦٨,٦ بالمئة للفئة العمرية بين ١٨ و٢٤، و٤٠ بالمئة فقط بالنسبة إلى الفئة الأكبر من ٦٠ سنة.

(١٠) «Rapport de synthèse de l'enquête nationale sur les valeurs,» dans: Cinquantenaire de l'Indépendance du Royaume du Maroc, p. 44, < http://www.rdh50.ma > .

من ناحية أخرى، يبرز التقرير الذي أعدته مؤسسة ماروك ميتري أن المغاربة يقبلون على مشاهدة القنوات الأجنبية، خصوصاً العربية، أكثر من مشاهدتهم القنوات المحلية، وتأتي قنوات «إم. بي. سي.» (MBC) على رأس القنوات الأكثر مشاهدة في المغرب، تليها قنوات «روتانا»، ثمّ قناة «الجزيرة». وتسجل نسبة المشاهدة ذروتها في رمضان، بـ ٤ ساعات و٢٠ دقيقة في اليوم، فيما تنخفض النسبة خلال آب/أغسطس، لتصل إلى ساعتين و٥٥ دقيقة. ويبدأ الإقبال على المشاهدة ابتداء من الساعة ١٢ ظهراً ليصل إلى الذروة في السابعة و١٥ دقيقة مساء، ثمّ تنخفض نسبة المشاهدة بعد ١١ ليلاً، فيما يمضي المشاهدون المنتمون إلى الشريحة العمرية أكثر من ٥ سنوات، حوالى ٢١٢ دقيقة يومياً أمام التلفزيون. كما كشفت نتائج البحث حول علاقة المغاربة بالتلفزيون أن ٥,٧ ملايين بيت في المغرب تتوفر على أجهزة تلفزيون، وهو ما يشكل نسبة ٩٠,٤ بالمئة، وأن ٩٦ بالمئة من بيوت المدن المغربية تتوفر على أجهزة تلفزيون، مقابل ٨٠,٥ بالمئة في القرى. وأوضح البحث نفسه الذي أنجزته «ماروك ميتري» أن ٨٠ بالمئة من الأسر المغربية تتوفر على جهاز تلفزيون واحد داخل البيت، مقابل ١٧ بالمئة تتوفر على جهازين، و٣ بالمئة فقط، تتوفر على ثلاثة أجهزة، وأن ٥٥,٨ بالمئة من البيوت المغربية تتوفر على جهاز رقمي لاستقبال القنوات الفضائية، مقابل ٤٤,٢ بالمئة لا تتوفر عليه.

كما إنَّ أهم ما يميّز هذه الفضائيات، هو أنّها تقع خارج السيطرة الرسمية للدولة، ولا يمكن معرفة محتواها، ولا مضمونها القيمي، وبالتالي عدم قدرة الدولة على التحكّم في سوق إنتاج القيم التي أصبحت تعيش تنافساً حاداً مع هذه الطفرة الفضائية (على غرار الطفرة النفطية) التي عرفتها المنطقة العربية في السنوات الأخيرة.

٢ ـ من هم الدعاة الجدد؟

أ ـ مفهوم مابعد الإسلاموية

لا يوجد حول مفهوم الدعاة الجدد إجماع في الأوساط الأكاديمية، وإنما أطلقه بعض الباحثين الغربيين المتتبعين لظاهرة التديّن في الوطن العربي. ويندرج في هذا الإطار كلّ من جيل كيبيل (Gilles Kepel)، وأوليفيه روا (Olivier Roy)، وتلميذه باتريك هايني (Patrick Haenni). فهم يعتقدون أن المجتمعات الإسلامية تتجه نحو نهاية الحركات الإسلامية، وبالتالي يدور حديثهم عن مفهوم مابعد الإسلاموية (Postislamism)، ويقصد بهذا المفهوم في رأيهم فشل حركات «الإسلام السياسي» في التغيير من خلال العمل السياسي، وهو ما يذهب إليه أوليفيه روا في كتابه **عولمة الإسلام**، في حديثه عن إخفاق الإسلام السياسي (L'Echec de l'islam politique)، فهو يعتبر أنّه لا توجد علاقة بين هذا الإخفاق وتراجع الأسلمة، إنما هو مرتبط بفصل السياسة عن الدين. ويضيف روا (Roy) أن الحركات الإسلامية الكبرى، قد تقولبت في إطار وطني، وساهمت في تعزيزه، إذ فتحت باب الانخراط في المجال السياسي أمام شرائح من المجتمع، تجنّبت في ما مضى دخول اللعبة

السياسية، وفي المقابل انتقلت هذه الحركات، بفعل التحول الجديد، إلى السياسة العملية، وأدخلت التعددية على ممارساتها السياسية (روا، ٢٠٠٣: ٢١٧).

أما باتريك هايني، تلميذ أوليفيه روا، في كتابه المعنون: **إسلام السوق** (*L'Islam de marché*)، فهو يعتبر أن الحركات الإسلامية لم تعد تتحكم في ديناميات الأسلمة التي أطلقتها، وأنّهم يواجهون منافسة قوية، وذلك بسبب بروز إسلام مرتبط برغبات السوق، ولا يهتم كثيراً بالقضايا السياسية (Haenni, 2005 : 8).

وبالتالي يجسّد الدعاة الجدد، في رأي هؤلاء الباحثين، نموذج مابعد الإسلاموية، الأمر الذي لا يتفق معه عدد من الباحثين الآخرين، فحسام تمام يعتبر أن تطبيق هذا المفهوم ربما ينطبق على بعض التنظيمات بعينها، لكنه لا ينطبق على كلّ الحالة الإسلامية. فالحركات الإسلامية تتميز بالتنوّع والتعدّد إلى درجة يصعب معها وضع أي تصنيف دقيق لها، بحيثُ إنَّ جلّ الباحثين، وخصوصاً الغربيين منهم، لديهم صعوبة في فهم معنى العمل السياسي لدى الحركات الإسلامية، فهي لا تتأسس وفق برنامج سياسي اقتصادي واجتماعي محدّد، كما لدى الحركات والأحزاب السياسية التقليدية، وإنما وفق منطق مغاير، فهي من لوازم الدعوة وضروراتها المركزية، والدعوة تتطلبها كأداة للتواصل الجماهيري، ثمّ كقناة لتدافع القيم؛ استكمالاً للمشروع الدعوي، غير أن الذي يحدث هو أن السياسة حين تتمكن وتتجذّر في أي مشروع، بما فيه مشروع الحركة الإسلامية، تفرض منطقها الخاص، وتفعل نسقها الطبيعي القائم على التعبوية والمصلحة، والتدافع، والخلاف (تمام، ٢٠٠٨).

ب ـ تعريف الدعاة الجدد

ليس الدعاة الجدد، ببساطة أو بالضرورة، أولئك الشيوخ التقليديون الذين يلبسون العمامة والجلباب، كما إنهم ليسوا كذلك الشيوخ السلفيون أصحاب اللحى الطويلة، والعباءات المقصّرة، ولم يتخرّجوا بالضرورة في المدارس الدينية التقليدية أو الرسمية، كالأزهر أو جامع القرويين... إلخ، ولا ينتمون إلى أي مؤسسة دينية رسمية.

كما يختلف الدعاة الجدد عن الوعّاظ الذين يستعملون خطاباً تراثياً «قديماً»، ويطرحون مواضيع كلاسيكية لا تهمّ المتلقي في حياته، هذا الخطاب الذي يهرب بالإنسان من العالم المادي إلى شيء مثير للخيال والعواطف، كأهوال القبر والأفعى التي تلفّ عنق الناس يوم القيامة... إلخ. كما إنّه يجب ألا نخلطهم بالمفكّرين الإسلاميين الجدد، كمحمّد أركون، وجمال البنا، ونصر حامد أبو زيد... إلخ.

إن الدعاة الجدد يتميّزون بمجموعة من الصفات تجعلهم مميّزين من باقي الدعاة، فهم من حيث الشكل يتميّزون بالشكل العصري، والملابس العصرية، بالإضافة إلى حداثة سنّهم. أما في ما يخصّ الخطاب، فهو يمثل قيم التوبة والاستغفار والإيجابية، والتعاون على الخير مع الغير هو من أهم القيم التي يدعو إليها هؤلاء الدعاة، كما إنهم يتجنبون الخوض في المسائل السياسية الشائكة والحديث في القضايا الخلافية، ويسعون إلى التغيير من خلال

التركيز على الفرد كوحدة للتغيير الحضاري الشامل، متمثلين الآية الكريمة: ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم**﴾[١١].

٣ ـ تحليل نتائج البحث الميداني

تنطلق معالجة الدعاة الجدد من زاوية سوسيولوجية تدرجهم ضمن الفاعلين الدينيين، المؤثرين في تشكيل الوعي الديني للشباب المغربي، بالإضافة إلى عدد من الفاعلين الدينيين الآخرين (مؤسسة العلماء، الحركات الإسلامية، الحركات الصوفية، الدعاة المستقلين) الذين يتقاسمون الأدوار في التأطير الديني. وقد توصلت نتائج البحث الميداني إلى النتائج التالية:

بالنسبة إلى معرفة الدعاة الجدد، أجاب ٦٢ بالمئة من الطلبة عن معرفتهم بهم، و٣٨ بالمئة لم يتمكنوا من التعرّف عليهم، فيما تعرّف عليهم ٥٥ بالمئة منهم عبر التلفاز، و٤٥ بالمئة عبر الإنترنت أو كتاب أو صديق أو بلقاء مباشر.

من ناحية الفرق بين الجنسين، تشير النتائج إلى أن الطالبات يتفوّقن نسبياً على الطلاب في معرفة الدعاة الجدد، فهي تمثل ٦٥ بالمئة بالنسبة إلى الطالبات، في حين لا تتجاوز ٥٨ بالمئة بالنسبة إلى الطلاب، بينما لم يتعرّف عليهم ٤١ بالمئة من الذكور، و٣٥ بالمئة من الإناث.

أما من ناحية التخصّصات العلمية، فيمكن ملاحظة الفرق بين الكليات: ٨٤ بالمئة من طلبة كلية الآداب تمكّنوا من التعرّف على الدعاة الجدد، في حين تنخفض النسبة إلى ٥٦ بالمئة في كلّ من كلية العلوم والتقنيات وكلية الحقوق.

كما استطاع ٥٤ بالمئة من الطلبة من الجنسين الذين شملهم البحث ذكر أسمائهم، بينما لم يستطع ٤٦ بالمئة منهم ذلك. وفي ما يلي أسماء بعض الدعاة الجدد الذين تكرّر ذكرهم في استمارات البحث: عمرو خالد، عائض القرني، طارق السويدان، مصطفى حسني، عمر عبد الكافي، محمّد حسان... إلخ.

وعندما يتعلق السؤال بذكر اسم وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية، ورئيس المجلس العلمي المحلي، تنقص هذه النسبة بشكل ملحوظ كالتالي: ٩٢ بالمئة من المستجوبين يجهلون اسم رئيس المجلس العلمي في مدينتهم، و٦٦ بالمئة لم يستطيعوا ذكر اسم وزير الأوقاف، فيما تعرّف على الأول ٨ بالمئة فقط، وتعرّف على الثاني ٣٤ بالمئة.

يظهر من خلال هذه النتائج أن أكثر من نصف الطلبة يعرفون الدعاة الجدد، وتتفوق الطالبات على الطلبة الذكور في هذه المعرفة. ويمكن تفسير هذا التفوّق بكون الفتيات يجلسن مدّة أطول في البيت، نظراً إلى الرقابة الاجتماعية التي تفرض عليهن المكوث لمدّة أطول في المنزل مقارنة بالذكور، كما إنهن ليس مفروضاً عليهن أداء صلاة الجمعة وحضور

(١١) **القرآن الكريم**، «سورة الرعد،» الآية ١١.

المحاضرات الدينية التي تلقى في المساجد، نظراً إلى الإكراهات الاجتماعية التي تحدّ من حركتهن خارج البيت، ولذلك فهن يلجأن إلى الفضائيات للبحث في القضايا الدينية، والتعلم واستقبال المعلومات الدينية. وهذه المعطيات يمكن من خلالها تفسير سبب معرفة الطالبات بصورة أكبر بالدعاة الجدد وبرامجهم، والقنوات التي تستضيفهم، مقارنة بالطلبة الذكور. كما إنَّ طلبة كليتي الحقوق والعلوم يعرفون الدعاة الجدد أقل من طلبة كلية الآداب، وهو ما يفسر من خلال كون كلية الآداب تشمل تخصّصات دراسية، مثل الدراسات الإسلامية واللغة العربية التي يلجها عادة أشخاص متديّنون.

والملاحظ أن أسماء الدعاة الجدد التي تمّ ذكرهم كلّهم ذكور ومن المشرق، خصوصاً مصر، وهو ما ينسجم مع الحضور المشرقي القوي في وسائل الإعلام الفضائية، في حين نجد غياباً شبه كامل للدعاة الجدد المغاربة، وكذا العنصر النسوي، اللهم إلا بعض الاستثناءات القليلة جداً. كما إنَّ الملاحظة الأكثر أهمية، هي جهل أغلبية الطلبة برئيس المجلس العلمي المحلي، واسم وزير الأوقاف، وهو ما يبرز ضعف التواصل بين الدعاة المحليين وفئة الشباب مقارنة بالدعاة الجدد، فالتعرّف على اسم الداعية يدلّ على مستوى من المعرفة والاهتمام والتأثير، وهو الذي نجده غائباً عند الدعاة المحليين من خلال نتائج البحث الميداني.

أما بخصوص معرفة قنوات وبرامج والاتصال بالدعاة الجدد، فقد عَبَّر ٥٥ بالمئة من الطلبة عن معرفتهم بالقنوات التي تستضيف الدعاة الجدد، فيما لم يستطع ٦٢ بالمئة منهم ذكر البرامج التي يشرف عليها هؤلاء الدعاة. وقد جاءت قنوات مثل: اقرأ، الناس، الرسالة، الشارقة... إلخ الأكثر تردداً، في حين لم يذكر أي طالب قناة السادسة الفضائية[١٢] ضمن هذه القنوات، وهو ما ينسجم مع التقرير الذي أصدرته مؤسسة «ماروك ميتري» في ما يخصّ مشاهدة قنوات التلفزة، المغربية والأجنبية، حيث أبرزت النتائج المحصل عليها غياباً كاملاً للقناة السادسة ضمن القنوات الفضائية التي يشاهدها المغاربة.

كما إنَّ البرامج الأكثر ذِكْراً هي كالتالي: «على خطى الحبيب»، «صناع الحياة»، «قصص الأنبياء»، «فضفضة»، «خدعوك فقالوا»... إلخ. كما عبّر ٣ بالمئة فقط من المستجوبين عن وجود اتصال بينهم وبين هؤلاء الدعاة، الأمر الذي يظهر ضعف التواصل المباشر مع هؤلاء الدعاة الجدد.

عندما يتعلق الأمر بسؤال معرفة الدعاة الجدد، يكون الجواب «نعم»، ولكن عندما يتعلق الأمر بذكر عناوين البرامج تعجز نسبة منهم عن الإجابة عنه، وعندما يتم سؤالهم عن تواصلهم المباشر معهم من خلال الاتصالات الهاتفية أو الإنترنت... إلخ، نجد غياباً

(١٢) قناة دينية مغربية.

شبه نهائي لأي تواصل معهم، وهو ما يفسر ضعف المعرفة بهم، وبأن هذه المعرفة لدى مجتمع البحث سطحية، على رغم ما أخذته الظاهرة من أهمية على مستوى الحضور الإعلامي.

خلاصة

يعرف تديّن الشباب المغربي تحوّلات عميقة في العقدين الأخيرين، يعكسها التزايد المطرد لأداء الشعائر الدينية، وهذا التطور يسير في اتجاه المزيد من الأسلمة إلى الفضاء العمومي والممارسات الاجتماعية، ومراجعة شاملة لِكُلّ القيم المجتمعية السائدة، ومحاولة تكييفها مع النسق الإسلامي المعياري المنصوص عليه في الكتب المقدسة (**القرآن الكريم والسنّة النبوية**). ويأتي هذا التحوّل نتيجة لعدد من العوامل، أبرزها تأثير الحركات الإسلامية بمختلف توجّهاتها في هذا التديّن بصفتها مؤطرة للوعي الديني وموجّهة له، وارتفاع نسبة التمدرس، ودور المناهج الدراسية والكتب الدينية، بالإضافة إلى تأثير وسائل الإعلام الحديثة، خصوصاً التلفاز والإنترنت. وهنا يبرز تأثير الدعاة الجدد الذين استفادوا من هذا التطور التقني، كما إنَّ تديّن الشباب المغربي يتميز عموماً بالاعتدال، أي أن ارتفاع معدلات التديّن عند الشباب المغربي لا يواكبه ارتفاع على مستوى التطرّف والتشدّد. وهذه النتيجة توصل إليها مجمل الدراسات التي أجريت في السنوات الأخيرة في المغرب، ابتداء من المسح العالمي حول القيم، والبحث الوطني حول القيم، والإسلام اليومي، وأخيراً دراسة غالوب.

وبالنسبة إلى الدعاة الجدد، تبرز قوة تأثيرهم من خلال ثنائية الصورة والخطاب، فاعتمادهم على التقنيات الحديثة للتواصل مكّنهم من الوصول إلى شرائح كبيرة من المجتمع، كما إنَّ لحداثة سنّهم واهتمامهم بالمظهر الخارجي جزءاً من هذا التأثير، بالإضافة إلى إدخالهم لمفاهيم التنمية البشرية إلى الخطاب الإسلامي، واستعمالهم لجهاز مفاهيمي يمزج بين النصوص الدينية والمعارف الإنسانية الحديثة، كتقنيات التخطيط الاستراتيجي والتفكير الإبداعي، وهو ما يضفي على هؤلاء الدعاة صفة الجدة. كما إنَّ من بين أبرز سمات هذا الفكر أيضاً أنّه تحول إلى فكر معولم يتجاوز الحدود السياسية، فدعاة هذا الفكر لم يقفوا عند حدود أقطارهم، بل تجاوزوها ليصبحوا دعاة ملكاً للمسلمين في العالم أجمع (فؤاد، ٢٠٠٨: ٥٧).

خلاصة القول، تحتاج ظاهرة الدعاة الجدد، باعتبارها ظاهرة حديثة، إلى تراكم معرفي كمّي وكيفي على مستوى الدراسات السوسيولوجية لمعرفة أبعادها وحدودها، والفرص والتحديات التي يفرضها هذا النمط الجديد من الدعوة الدينية على أنماط التديّن السائدة بالنسبة إلى الشباب المغربي، وهو ما يتطلب من الباحثين في حقل العلوم الاجتماعية الاهتمام بهذه الظاهرة والاقتراب منها باستعمال أدوات التحليل الاجتماعي، وتفكيك خطابها وتحليله بعيداً عن المقاربات التبسيطية والاختزالية للظواهر الإنسانية □

المراجع

أبو اللوز، عبد الحكيم (٢٠٠٨). «الحركات السلفية بالمغرب.» (أطروحة دكتوراه في القانون العام، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء).

بخوش، عبد القادر (٢٠٠٧). «مفهوم الدين بين الفكر الإسلامي والمسيحي.» موقع إسلام أون لاين، ٥ آذار/مارس.

تمام، حسام (٢٠٠٨). «هل انتهى «الإسلام السياسي» كما تبشر الكتابات الغربية؟.» موقع إسلام اون لاين، ١٩ آب/أغسطس.

روا، أوليفيه (٢٠٠٣). **عولمة الإسلام**. ترجمة لارا معلوف. بيروت: دار الساقي.

عبد المتعال، صلاح (٢٠٠٦). ««التدين الجديد»... مناورة حضارية.» موقع إسلام أون لاين، ٨ كانون الثاني/يناير.

فؤاد، وسام (٢٠٠٨). **التدين الجديد: محاولة لفهم الظاهرة والأبعاد**. بيروت: منشورات إسلام أون لاين؛ الدار العربية للعلوم ناشرون.

لطفي، وائل (٢٠٠٥) **ظاهرة الدعاة الجدد: تحليل اجتماعي**. القاهرة: مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

الهرماسي، عبد الباقي [وآخرون] (٢٠٠٠). **الدين في المجتمع العربي**. ط ٢. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

El Ayadi, Mohammed, Hassan Rachik et Mohamed Tozy (2007). *L'Islam au quotidian: Enquête sur les valeurs et les pratiques religieuses au Maroc*. Casablanca: Editions prologues.

Bourqia, R. [et al.] (2000). *Les Jeunes et les valeurs religieuses*. Casablanca: Editions EDDIF.

Haenni, Patrick (2005). *L'Islam de marché: L'Autre révolution conservatrice*. Paris: Edition seuil. (La République des idées)